بسم الله الرحمن الرحيم

لما كانت العلاقة بين الآباء والأبناء من الأهمية بمكان أفرد القرآن الكريم لنا مشهداً مهيباً لأب حكيم ومرب عظيم أثنى الله عليه، بل جعل سورة كاملة باسمه، وهي سورة لقمان يجلس مع ابنه جلسة روحية، ويوصيه فيها بأعظم وصية، بأسلوب بديع، وإشفاق رحيم.

كان لقمان عبداً أسود، غليظ الشفتين، جاءه رجل وهو يحدثهم، فقال له: ألست أنت الذي ترعى الغنم في مكان كذا وكذا؟! قال لقمان: نعم. قال: فما بلغ بك ما عرفت؟ قال: قدر الله، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وترك ما لا يعنين، وغض بصري، وكفّ لساني، وحفظ فرجي، ووفائي بعهدي، وتكرمتي لضيفي، وحفظي لجاري، فذلك الذي صيرني إلى ما ترى.

لقد وهبه الله الحكمة ومنّ عليه بالبصيرة {وَلَقَدْ ءاتَيْنَا لُقْمَانَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ للهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ}.

أمره تعالى بالشكر على النعم كلها الظاهرة والباطنة، ومن أعظمها الإيمان والحكمة.

لقد ساق الله تعالى لنا وصايا لقمان لابنه، وهي تمثل أصولاً لمنهج التربية في الإسلام، قدمت بكلمات رقيقة وألفاظ عذبة، بأسلوب الواعظ الناصح المربي المشفق.

{ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } يعظه: أي يأمره بالخير وينهاه عن الشر يناديه بنداء الحنان والشفقة (يَابُنَيَّ) يرددها عليه مرات ومرات، ليفتح بها قلبه ويستدعي بها أحاسيسه ويهيئه لحسن الاستفادة من الموعظة، بعيدا عن الغلظة والشدة والعنف والقسوة التي تنفر الولد من الوعظ والتوجيه{يَابُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ}إنها الوصية العظيمة تحقيق التوحيد وتصحيح العقيدة، أهم ما تربى عليه الأجيال الناشئة المحافظةُ على عقيدة التوحيد فهذا من أهم المهمات المنوطة بالوالدين.

وبعد الوصية بحق الله تعالى، كانت وصية الله تعالى بأعظم حقوق الخلق، وهو حق الوالدين، {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ}.

تأمل كيف انتقل الخطاب من لقمان إلى الخطاب من الله تعالى، ليتولى سبحانه بنفسه الوصية بالوالدين ويقرن حقهما بحقه سبحانه وشكرهما بشكره، ثم يخص الله تعالى حق الأم بالذكر والتعظيم {حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ}. ذكر الله تعالى في شأن الأم ثلاث مراتب: أولها الأمومة بكل ما تحمله من معانٍ، ثم الحمل وما يلتحق به من مشاق وأوجاع، ثم الرضاعة وما فيها من الضعف والجهد.

وكل هذه المراتب إحسان وجميل من الأم يستوجب من الابن أن يحفظ الجميل ويرد صنائع المعروف وأن يجزي الإحسان إحسانا.

ثم أكد الله تعالى حق الوالدين وإن كانا مشركين معاديين {وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ}. وهنا وقفة تأمل: إذا كانت المصاحبة بالمعروف واجبة للأبوين الكافرين، فكيف بالأبوين المسلمين؟ لا شك أن الأمر أوجب، والمقام أعظم.

ويعود سياق الآيات على لسان لقمان مع الوصية الثالثة {يَابُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ}.

يؤكد لقمان على قضية عقدية وهي مراقبة الله جلّ وعلا في السر والعلن، ويخبر ابنه أن الله عز وجل أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددا، وأن الخطيئة مهما اجتهد المخطئ الظالم في إخفائها فإن الله عز وجل يأتي بها وتكون حاضرة يوم القيامة، وهذه لفتة للآباء والمربين في زرع المراقبة الذاتية في نفوس الأبناء، والدعوة لمراقبة الله واستحضار اطلاعه جل شأنه. وفي قوله (يَأْتِ بِهَا اللَّهُ) بيان لتمام قدرة الله تعالى وإحاطته بخلقه، هذا المعتقد الذي يجب أن يغرس في نفس الطفل، يا بني إن الله تعالى هو القادر على كل شيء، هو صاحب القوة التي لا تقهر، هو الذي يملك هذا الكون، هو الذي لا يخفى عليه خافية من حركة أو سكنة.. يا بني (يَأْتِ بِهَا اللَّهُ) وليس سوبرمان أو سبا يدر مان الذي يخترق عقيدة الطفل المسلم ويشككه في قدرة الله، فلا يجوز أن يترك الطفل أمام القنوات وهي لا تحتكم لحكم شرعي ولا منهج تربوي، بل هي تفسد الدين والخلق والتربية

{يَابُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ} انتقل بعد العقيدة إلى العبادة فأمر ولده بإقامة عمود الإسلام وهو الصلاة، وحري بالأب والأم أن يهتما بتعويد الطفل على الصلاة من سن السابعة

وبعد الصلاة التي هي عمود العبادات، كانت الوصية الخامسة في السلوك الاجتماعي وإصلاح الآخرين بعد إصلاح النفس {وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ} أمره بالإصلاح ودعوة الآخرين، وأوصاه مع هذا كله بملازمة الصبر على ما يناله من أذى، لأن من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فلا بد أن يناله أذى الناس، ومن ثمَّ فهو مأمور بالصبر على أذاه. {إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ} أي: من الأمور التي أمر الله بها على وجه العزم والتأكيد.

ثم ختم لقمان وصاياه النافعة لولده بالوصية السادسة الجامعة في باب الآداب والأخلاق، {وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ} نهاه عن الكبر بأن يميل بخده عن الناس تكبراً عليهم، {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا} أي فخراً وخيلاء.. {إِنَّ اللهَّ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ}.

ثم أوصاه بالأدب في المشي والكلام، فقال: {وَاقْصِدْ فِي مَشْيِك} أي وسطاً بين البطء والإسراع، {وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ} أي اخفض من صوتك في كلامك مع الناس، ولا ترفعه دون حاجة، لأن أبشع الأصوات وأنكرها صوت الحمير التي ترفع أصواتها.

ختاماً، معاشر الآباء والمربين.. ما الذي نستفيده من قصة لقمان ووصاياه؟

ليست قصة لقمان الحكيم ووصاياه لابنه، لمجرد الخبر أو التسلية، وإنما لتكون منهجا سديدا يسلكه الآباء والمعلمون والمربون، ويسيرون على نهجه في تربية الأبناء.

إن وصايا لقمان الحكيم لابنه تشير إلى قضية هامة في المجتمع المسلم، وهي قضية القرب من الأبناء ووعظهم وإرشادهم وتوجيههم والجلوس ومعهم والتحدث إليهم. وإذا لم نقم بهذا الأمر تركنا الطرقات والشوارع تربّي أبناءنا.. والقنوات الفضائية تفسد مبادئهم وتهدم أخلاقهم.. ورفاق السوء والشلل الفاسدة تنخر في سلوكياتهم وتصرفاتهم.. والنتيجة: فساد كبير لا يعلمه إلا الله.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين